الأسباب في ميزان أهل السنة

خطبة جمعة للشيخ أ.د. صالح بن عبد العزيز سندي

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ نبينا محمدًا عبده ورسوله؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم تسليمًا كثيرا، أمَّا بعد :

فاتقوا الله عباد الله، واعلموا أنَّ موضوع الأسباب واتخاذها وحدود التعامل معها ظاهرًا وباطنًا من أهمِّ ما على المسلم أن يتفقَّه فيه، ولاسيما في هذه الأيام، فكم المخطئون فيه الجانحون إلى طرفي غلو أو جفاء، وأهل السنة والجماعة هم الذين وُفِّقُوا لسلوك مسْلك الحق الوسط، الموافق للنقل والعقل، البريء من فرْث الإفراط ودم التفريط، **وسأسوق لك -أيها الموفق- بعون الله خلاصة كلامهم فيه في عشر قواعد جامعة**؛ فأرخ سمعك واستنصت إلى كلمي.

۞ **القاعدة الأولى: اللهُ يقدِّر الأشياء بأسبابها مع غناه عنها**؛ فالله جل وعلا لحكمته يقدِّر الأشياء لأسبابها، وهو جل وعلا غني عن الأسباب والتسبب لكنها حكمة له سبحانه ، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ولو تتبَّعنا ما يفيد إثبات الأسباب من**

القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع، ولم نقُل ذلك مبالغة بل حقيقة، ويكفي شهادة الحس والعقل والفطَر».

۞ **القاعدة الثانية: ليس كل ما يحصل بسببٍ لا يحصل بدونه** ؛ إذا علمتَ أنَّ الله يُقَدِّرُ الأشياء بأسبابها فاعلم أيضًا أنَّه ليس كل ما ترتب على سببٍ لا يحصل بدونه ، بل قد يحصل بدونه ؛ فالوالدان سبب وجود الولد، والله قادرٌ على أن يوجِد الولد بلا والدين؛ كما أوجد آدم وحواء وعيسى وناقة صالح، والدواء سبب الشفاء، والله قادرٌ على أن يشفي بلا دواء؛ وهذا دليل على ربوبية الله وعظمته، فلا تتعلق القلوب بسواه .

۞ **القاعدة الثالثة: مصالح الدنيا والآخرة مرتبطة بالأسباب؛ فلابد من تحصيلها**، فالله جل وعلا قدَّر المقادير وهيئ لها أسبابا، وهو الحكيم العليم بما نصبه من الأسباب في المعاش والمعاد ، فإذا علِم العبد أن مصالح دنياه وأخراه مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهادًا في فعلها والقيام بها، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ**»، فالله قدَّر الخير والشر وأسباب كلٍ منهما ، فيُدفع قدَر الجوع بقدَر الأكل، ويُدفع قدَر العطش بقدَر الشرب ، ويُدفع قدَر المرض والوباء بقدَر العلاج والوقاية، ويُدفع قدَر البرد بقدَر اللُبس، ويُدفع قدَر الاعتداء بقدَر الدفاع ، ويُدفع قدَر الذنب بقدَر التوبة والطاعة ، فيفِرُّ العبد من قدَر الله إلى قدَر الله ، ولا قيام لمصالح الناس في هذا الكون إلا بهذا، وهذا بابٌ واسع لمشاهدة حكمة الله تعالى وكمال ربوبيته واتصافه بالعدل واللطف والرحمة .

۞ **القاعدة الرابعة: السبب مؤثرٌ وليس علةً تامة ولا أمارةً محضة**؛ فأهل السنة متوسطون بين هذين الاعتقادين، فليس السبب علة مستقلة بإيجاد المعلول؛ فهذا من أعظم البهتان، وليس في المخلوقات علةٌ تامة صدَر عنها شيء، بل ذلك لا يكون إلا عن مشيئة الله وخلقه، كما أن السبب ليس أمارة محضة أن يكون الشيء عنده لا به كما يقوله من يقوله من المتكلمين، وصدق فيهم قول من قال من أهل العلم «**تكلم قومٌ في نفي الأسباب ؛ فأضحكوا أهل العقول على عقولهم**»، فالسكين في قولهم حصل القطع عندها لا بها، وهذا باطل دون شك، بل السبب له أثر في حصول المسبَّب ولكنه ليس أثرًا مستقلًا، ولا وجود لسبب مخلوق يؤثر تأثيرًا مستقلا .

۞ **القاعدة الخامسة: سببية الأشياء ليست ذاتية**؛ شأن جميع الأسباب التي جعلها الله سبحانه أسبابا أنَّها أسباب مؤثرة لكن بمشيئة الله جَلَّوَعَلَا، فهو الذي جعل السبب سببًا، ولو شاء سبحانه أن يُبْطِلَ سببيَّته لفعل، فإنه على كل شيء قدير ولا رادَّ لحكمه ، ولذا لم تكن النار محرقة لإبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ لما شاء الله أن يسلب النار التأثير، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ وعليه فلا تتعلق القلوب بشيء من الأشياء سواه البتة .

۞ **القاعدة السادسة: وجود السبب لا يوجِب حصول المسبَّب**؛ لا يؤثر سببٌ البتة إلا بانضمام سببٍ آخر أو أسبابٍ إليه فتعاونُه وتشاركه، ولابد ثانيًا من تحقيق شروط تأثير السبب في المسبَّب، ولابد ثالثًا من انتفاء المانع، فمع وجوده لا يحصل للسبب تأثير، وكل هذا مرتبط بمشيئة الله، فهذا شأن الأسباب مع مسبباتها، فكل سبب مهما علا فغايته عند التحقيق أن يكون جزء سبب غير

مستقل بالتأثير، ولا يستقل بالتأثير وحده دون توقف تأثيره على غيره إلا الواحد القهار سبحانه، فهو الذي بيده الحول كله والقوة كلها، ومن اعتقد أن سببًا يؤثر استقلالا عن مشيئة الله فقد أشرك، وهذا برهان قطعي على وجوب أن ينخلع من القلب كل تعلق بغير الله ، وأنَّ تعلق الرجاء والخوف بغير الله مهما علت رتبته باطل ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

۞ **القاعدة السابعة: لا يستقل بالإيجاد والتأثير إلا ربُّ العباد سبحانه** ؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فمشيئته هي الموجبة للأشياء على الحقيقة، فإن جميع الأسباب تتسلسل إلى أن تصل إلى الموجب للأشياء على الحقيقة ؛ وهو مشيئة الله جَلَّ وَعَلَا.

۞ **القاعدة الثامنة: التوكل هو ترك الاعتماد على الأسباب بعد بذلها؛** فالتوكل يجمع هذين الأمرين؛ بذل السبب، والاعتماد على الله. أو هو كما قيل : (اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضراب) ؛ أي هو حركة لا تسكن بفعل الأسباب، وسكون إلى المسبِّب سبحانه وركونٌ إليه واعتمادٌ عليه فلا يضطرب قلبه معه، «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ**»؛ والحرص: بذل المستطاع في حدود ما أبيح، فما على العبد إلا القيام بالأسباب والاعتماد بالقلب على المسبِّب وتفويض الأمر إليه ، فوِّض الأمر إليه هو أولى بك منك .

فاللهم ارزقنا التوكل عليك حق التوكل .

أقول هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه ؛ إن ربي غفور رحيم .

ٱلْخُطْبَةُ ٱلثَّانِيَةُ

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أمَّا بعد:

۞ **القاعدة التاسعة: إهمال الأسباب ليس مشروعا** ؛ يظن بعض الناس أنهم إذا تركوا بذل الأسباب أنَّهم بهذا يكونون متوكلين؛ وهذا غلط محض، فليس هذا من التوكل الشرعي، إنما مخالفةٌ لسنة الله الشرعية وسنة الله الكونية، ومعارضة لحكمته، كما أنه مخالفٌ لهدي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهدي أصحابه، فسيد المتوكلين صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لبِسَ في جهاده المغفر والدرع ، وحفر الخندق، وكان يرصد لأهله قوت سنة، وقال «**فِرَّ مِن المجذومِ فِرارَك مِن الأسَدِ**»، هذا وهو أعظم الناس توكلا واعتمادا على ربه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ .

وإذا كانت الشريعة قد جاءت باتخاذ الأسباب فتركها قدحٌ فيها ، وإذا كان من حكمة الله أن ربط المسببات بأسبابها فالقدح في الأسباب قدحٌ في حكمة الله، كما أنه تعطيلٌ لأمر الله وشرعه لأنه سبحانه أمر بفعل الأسباب الدينية والدنيوية النافعة . والتوكل -كما سبق- حقيقة مركبة من أمرين:

*فعل السبب بالجوارح،

*وتفويض القلب،

والقوم قد أخطأوا حين ظنوا أن كون الأشياء مقدرة يمنع كونها مرتبطة بأسبابها ، فالله قدَّر الأشياء بأسبابها ؛ فقدَّر السفر وقدَّر أن يكون بالترحال ،

وقدَّر الريّ وقدَّر أن يكون الريّ بالشرب ، وقدَّر الولد وقدَّر أن يكون الولد بالزواج ؛ وعليه فمن أراد المسبَّب فعل السبب.

لابد من ملاحظة الأمرين:

*أن الله قدَّر الأشياء،

*وأنه يربط الأشياء بأسبابها، على أنه يقال: إن دعوى التخلي عن الأسباب لا يمكن لأحد طردها البتة ، فترك الأسباب مطلقًا مستحيلُ عقلًا وشرعًا وحسًا ، ومن ادَّعى ترك الأسباب مطلقًا فهو كاذب في دعواه ، إنما هو تارك لبعض الأسباب لشبهة أو هوى، وفاعلٌ لأسباب أخرى كثيرة ، أليس يتنفس ويأكل ويشرب!! فالحق الذي لا ريب فيه: أن الدين هو إثبات الأسباب والوقوف معها والنظر إليها ، ولا دين إلا بذلك، ولا يتم إسلام إلا بذلك . فأسعد الناس في الدارين أقومهم بالأسباب الموصلة إلى مصالحها، وأشقاهم في الدارين أشدهم تعطيلا لأسبابها ، فبالأسباب عُرف الله وبها عُبد، وبها تقرب إليه المتقربون ، وبها نال أولياؤه رضاه ، وبها نُصر حزبه، وبها انقسم الناس إلى سعيد وشقي .

فقف عبد الله مع الأسباب حيث أُمرت بالوقوف معها ، وفارقها حيث أُمرت بمفارقتها ، واحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز تكن من المفلحين . قال أهل العلم : «**إنكار أن تكون الأسباب أسبابًا بالكلية قدحٌ في الشرع والحكمة ، والإعراض عنها بكونها أسبابًا نقصانٌ في العقل ، وتنزيلها منازلها ومدافعة بعضها ببعض وتسليط بعضها على بعض هو محض العبودية والمعرفة وإثبات التوحيد والشرع والقدر والحكمة**»

۞ **القاعدة العاشرة: الاعتماد على الأسباب نقصٌ في التوحيد**؛ إنَّ من لُباب التوحيد أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤيةً تقطع الالتفات إلى الأسباب والوسائط ، فلا ترى الأشياء إلا منه خلقًا وتقديرًا، فهو الخالق المدبر مالك الملك، فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بتقديره، وهذا المقام يثمر التوكل على الله والرضا عنه والتسليم لحكمه، أما قصر النظر على الأسباب المحسوسة فنقصٌ في الإيمان وضعف في التوحيد ، وهذا حال كثير من الناس ؛ فمتعلق قلوبهم الأسباب المحسوسة ، لاسيما مع طغيان المادية وضعف معرفتهم بالله ونعوت جلاله وعظيم سلطانه ، وكم ينسب هؤلاء نعمة الله إلى غيره ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[النحل:٨٣] ، أما الموحِّد الصادق فإنه إذا فعل ما فعل من الأسباب كان مشاهدًا أن الله هو الذي خلقها وقدَّرها وسخرها، وأن كل ما في السماوات والأرض فالله ربه ومالكه وخالقه ومسخره ، وهو مفتقر إليه .

إنَّ المؤمن ينفذ من الأسباب إلى مسبِّبها ولا يتعلق قلبه بها، إنه وإن كان يتعاطاها فبجوارحه، أما قلبه فمتعلق بمن بيده ملكوت كل شيء، ولذا فلا حظَّ في قلبه لها بحيث يركن إليها أو يعتمد عليها ؛ فهذا الذي حقق ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥] . قال بعض العلماء: «**الالتفات إلى الأسباب شركٌ في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقصٌ في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدحٌ في الشرع، وإنما التوكل المأمور به ما يجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع**».

إنَّ الموحد المتوكل لا يلتفت إلى الأسباب؛ أي لا يطمئن بها ولا يثق بها ولا يرجوها ولا يخافها، وإن كان لا يهملها ولا يلغيها، لكن ليس فيه اضطراب من

تشويشها ولا سكونٌ إليها، إنما تبصَّر فيها فصعد منها إلى مسبِّبها ؛ فخلع السكون إليها من قلبه، وألبسه السكون إليه وتعلق به دونها، وعلِم أنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تعطي ولا تمنع، وأنه إذا شاء جعل نافعها ضارًا ، وضارها نافعا، ودواءها داء، وداءها دواء، فالالتفات إلى الأسباب -عباد الله- نقصٌ في التوحيد وشركٌ يرق ويغلظ وبين ذلك؛ فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من قلبه فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة، فالتوحيد والتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب وتعلق الجوارح بها، فيكون منقطعًا منها متصلا بها؛ يأت بها إتيان من لا يرى النجاة والوصول إلا بها، ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه ولا تحصِّل له الفلاح ولا توصله إلى المقصود ، فيجرد عزمه للقيام بها حرصًا واجتهادا، ويفرغ قلبه من الاعتماد عليها والركون إليها ، فلا توكل إلا عليه سبحانه، ولا التجاء إلا إليه، ولا خوف إلا منه، ولا رجاء إلا فيه، ولا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه. فمن جمع بين هذا التوحيد وبين إثبات الأسباب استقام قلبه على السير إلى الله، ووضح له الصراط المستقيم الذي مضى عليه رسل الله وأتباعهم .

عبدَ الله : «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ**» ؛ فالدين كله ظاهره وباطنه شرائعه وحقائقه تحت هذه الكلمات النبوية ، والتوفيق بيد الله .

اللّٰهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وآله وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .